D. الأمبراطورية الشرقية التي شيدها خلفاء المدينة (٦٣٢-٦٦١)

I. خلافة المدينة عشية الفتوحات الخارجية

يجمع المؤرخون المعاصرون على التسليم بأنه إذا كان الاسكندر الأكبر، قد إستطاع تحقيق حلمه الكبير بفتح الشرق الأدنى وآسيا ونشر الهللينية فيهما فإنما ذلك يعود الى العمل التمهيدي الذي قام به قبله والده فيليب الثاني ملك مقدونيا.

«ففيليب هو مَنْ خطط لمعظم المآتي الكبيرة التي أنجزها إبنه، وهو من وضع أسس البناء الذي شيده ولده وزوده بعُدّة العمل وكان قد باشر فعلاً لحظة موته بشن تلك الحملة الكبرى ضد فارس»[1].

إن التشابه مثير للدهشة بين تكوين الدولة العربية ـ الحجازية وتوسعها وتشكيل المملكة اليونانية ـ المقدونية وتمددها. فمحمدﷺ في الجزيرة العربية، وعلى غرار فيليب في البلاد الهللينية، كان البطل الحقيقي وراء التوسع العربي في الخارج، برغم أنه توفي قبل ان يدرك نهاية تلك الملحمة على يد صحابته وخلفائه. فمحمدﷺ هو مَنْ وضع أسس الموطن المقبل للعالم الإسلامي الواسع. وهو مَنْ وحد جزيرة العرب وأنشأ حول المدينة ومكة دولة عربية كبرى وتنظيماً عسكرياً صلباً وديناً جديداً أوثق اللحمة بين القبائل المستقلة في الجزيرة العربية كما أنشأ أخيراً أمة متجانسة ومتضامنة.

غير أن هناك نقطة يختلف فيها فيليب ومحمدﷺ الواحد عن الآخر. فالمقدوني عرف كيف يعد إبنه إسكندر لمتابعة سياسته. «إنه أحد الملوك القلائل في التاريخ الذين أبدوا إهتماماً بمن سيحكم بعدهم. فقد تلقى الاسكندر فعلاً تربية خاصة وقد أعد لتولي الأمبراطورية. وكان الفيلسوف أرسطو أحد

1 H.G. Wells, *Esquisse de l'Histoire universelle*, p. 163.

أبـرز معلميه العـديدين الـذين إختارهم والـده لكي يشرفـوا على اعـداده. كـما دربه فيليب على سياسته»[2].

وأما بالنسبة الى محمدﷺ فهو يشبه من هذا القبيل الاسكندر نفسه، فقد قضى مثـل النبيﷺ بعدمـا أصيب بالحمى ومن غـير أن يتمكن من تعيين خلف له. إن هذا الإهمال الذي كان السبب الأول في تفكك الامبراطورية اليونانية ـ المقدونية سيكون أيضاً سبب ضعف الأمبراطورية العربية ـ الاسلامية. وإن المؤرخين الذين كانوا مجحفين بحق فيليب الذي وضعوه في المرتبة الثانية إنما كانوا أكثر إنصافاً نحو محمدﷺ. ذلك ان شخصية محمدﷺ هي التي ستسود إثر وفاته الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي.

١ ـ خلافة المدينة ملكيـة عربيـة، تيوقـراطية، إختيـارية ولمـدى الحياة (٦٣٢ ـ ٦٦١)

أ ـ خلفاء المدينة الأربعة أو الخلفاء الراشدون

وكما كان الأمر مع الإسكندر فإن مـوت محمدﷺ المفـاجىء، الذي حـرمه من تعيـين خلف له ولم تكن لـه ذرية من الـذكور، كـاد يهـدم البنـاء السيـاسي والـديني والاجتماعي الـذي شاده وكلفـه عشرين عـاماً من الجهـود. فالـطائفـة الإسلامية الناشئة، المكونة حديثاً والتي لم تكن بعـد معدة لـلأشكال الاجتمـاعية في جزيرة العرب القديمة كانت مـا تزال يـومها تنـظيماً طـري العود لم يتمكن من الصمود إلا بفضل شهرة مؤسسه.

لـذا فما أن تـوفي محمدﷺ، حتى نشـأ صراع حـاد على السلطة بـين أهـل المدينة وأهل مكة... وتأسست أحزاب عـديدة. نـاهيك بـأن القبائـل البدويـة التي لم تخضع يومـاً لأي نير، رفضت دفـع الجزيـة وتخلت عن الإسلام. وأخيـراً فـإن رجالاً عـديدين، وحتى نسـاء، ظنوا أن بـوسعهم تقليد محمـدﷺ فـإدّعـوا النبوة.

لكن الطائفة العربية ـ الإسلامية الجديدة الشابة والقـوية واجهت بحكمـة هـذه الأزمة التي أخـذتها عـلى حين غـرة، وتلافت القـطيعة. وقـد كان الفضـل لصحـابة محمـدﷺ، كما كـان في الماضي لـرفـاق الاسكنـدر، في إنقـاذ الـوضـع

2 Wells, *op. cit.*, p. 164.

باختيارهم خلفاً[٣] لمحمدﷺ أبا بكر (٦٣٢ ـ ٦٣٤) العجوز وكان صديق الرسولﷺ ورفيق هجرته ووالد زوجته.

لقد شكل ابو بكر وعمر وعثمان وعلي، وقد تعاقبوا على الخلافة من العام ٦٣٢ الى العام ٦٦١ وكانت عاصمة خلافتهم المدينة، سلسلة من الخلفاء الذين عرفوا بالراشدين أي الحكماء أو الكاملين. ويعتبر المؤرخون العرب حكمهم على أنه تتمة للطائفة العربية ـ الإسلامية كما أنشأها النبيﷺ.

الخليفتان الأولان أي ابو بكر (٦٣٢ ـ ٦٣٤) وخلفه عمر (٦٣٤ ـ ٦٤٤) سيطرا من أعلى على كل تاريخ الاسلام. ففي حين وطد حكم أبي بكر القصير دعائم الإسلام في الجزيرة العربية وبدأ بفتح سورية وبلاد ما بين النهرين كان عمر القائد والمنظم لدولة الاسلام الفاتحة. وقد مثلت سنوات حكمه العشر مرحلة الانتشار الظافر بالنسبة الى الإسلام: فسورية وبلاد ما بين النهرين وفارس ومصر والقيروان أي كل الشرق التقليدي أو المتوسطي سوف تضم إلى امبراطورية المدينة، العربية-الإسلامية ويحكمها ولاة ضباط يمثلون الخليفة.

وأما عثمان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) وعلي (٦٥٦ ـ ٦٦١) وقد كان كلاهما صهراً للنبي، فلم يتمتعا بشخصية سابقيهما المشهورين وهيبتهما. فعثمان كان خليفة لا شأن له يخضع الى تأثير أبناء عشيرته. وأما مع علي الذي يختم سلسلة الخلفاء الراشدين فقد عرفت امبراطورية المدينة العربية الاسلامية الانقسام والحرب الأهلية وانتهت الى الانهيار العام ٦٦١ تحت ضربات امبراطورية عربية ـ سورية هي امبراطورية الخلفاء الأمويين. وهكذا فإن دمشق أزاحت المدينة وحلت محلها كعاصمة سياسية.

ب ـ الخلافة مؤسسة سياسية ودينية

أشرنا سابقاً الى أن اليونان، وهم «أسياد العلوم والفنون»، جاؤوا الى الشرق بالهللينية وجاء الرومان، وهم أسياد «الحرب والحكم» إليه بالرومانية.

(٣) إن كلمة خليفة تعني بالعربية الخلف؛ وقد سُمي المنصب خلافة، تماماً كما أعطى لقب إمبراطور تسمية إمبراطورية للدولة الرومانية.

وأما الساميون العرب الذين دفعوا بالهللينية والرومانية معاً الى ما وراء جبال طوروس فقد جاؤوا لاحياء الاستشراق الذي تحت غطاء الخلافة الاسلامية سيجمع في قبضته السياسة والدين معاً.

كما أن الامبراطورية الرومانية الأولى التي نظمها اغوسطس كانت في الواقع جمهورية أرستوقراطية، أو بالأصح، ملكية اختيارية ولمدى الحياة فإن خلفاء محمدﷺ الأربعة الأول، والذين سموا بالراشدين، أقاموا في المدينة جمهورية أو ملكية تيوقراطية ينتخب رئيسها للحكم مدى الحياة.

غير أنه وفي حين كان الأباطرة الرومان الأول يألون على أنفسهم مهمة أساسية هي تنظيم الامبراطورية الكبرى التي خلفتها لهم الجمهورية فإن خلفاء العاهل ـ النبي كان هدفهم الرئيسي إنتشار الهيمنة العربية ـ الإسلامية خارج جزيرة العرب.

ج ـ الخليفة أول رئيس ديني وأمير المؤمنين.

إن أبا بكر، وهو أول خلفاء محمدﷺ، إتخذ لقب «خليفة رسول الله». إن هذه السابقة التي تحولت الى تقليد ستجعل من الخلافة ملكية تيوقراطية ومطلقة. وكان يجب أن ينتمي الخلفاء إلى قبيلة قريش العربية التي خرج منها النبيﷺ كما كان خلفاء أغوسطس الأوائل يختارون من سلالة يوليوس.

إن الخليفة، وهو الرئيس الأعلى للطائفة التيوقراطية، يحمل أيضاً لقب الإمام أي أول رئيس ديني، كما يحمل لقب «أمير المؤمنين». ويجدر بنا أن نذكر هنا أن أباطرة الرومان في الامبراطورية القديمة كانوا هم أيضاً يحملون لقب الحبر الأعظم والأمير وهذا الإسم الأخير كان يجعل من الامبراطور المواطن الأول بين المواطنين الرومان.

وعلى غرار سلطة الأباطرة الرومان الأول أو الأمراء، كانت سلطة خليفة المدينة تنظيماً فريداً أو تسوية بين رئيس القبيلة والملك الشرقي الساساني أو البيزنطي. إنه حكم أبوي وتكملة للفوضى والأساليب البدوية.

د ـ سلطات الخليفة وواجباته

إن مدى أو حدود سلطة الخليفة وممارسته لها فضلاً عمن سيخلفه في الحكم لا تحددها أية قاعدة. ففي غياب النصوص الدستورية غير الموجودة في القرآن الكريم فإن قوة الخلفاء وسلطتهم كانت تقوم على نفوذهم الشخصي

وعـلى صفتهم كممثلين للنبيﷺ. إن سلطة هؤلاء الملوك التي كـانت مـطلقة وغـير محدودة وإستبـدادية، وهي روحيـة وزمنيـة معـاً تنجم، عـلى غـرار سلطة الأمبراطور أغوسطس في الماضي، عن مهام مختلفة كانت مناطة بهم وحدهم في قيادة الطائفة الإسلامية.

فالخليفة بصفته خلفاً للنبي وأميـراً للمؤمنين وأول رئيس ديني هـو الرئيس الأعـلى للطائفة: أي الـرئيس السياسي والـديني والعسكري والمـدني وهو يتمتـع بسلطات لا تحدها من حيث المبدأ سوى الشـريعة الاسـلامية. فهـو يؤم المصلين ويمنـح الجيوش الاسـلامية «البـركة» التي تضمن لهم الفـوز. وهـو كمؤتمن عـلى الشريعة ذات الجوهر الديني فهو يراقب تطبيقها.

إن الخليفة يدير كما يشـاء أموال الـدولة. فهـو يعينها لحـاجات الحـرب أو للأشغال العامة أو لمساعدة الفقـراء أو كهبات لصـالح أعضـاء اسرة النبيﷺ أو لأبنـاء مكة والمـدينة الأوائـل الذين إعتنقـوا الإسلام. وعلى الخليفة الحفـاظ على المبادىء الدينية على أكمل وجه والقضـاء بعدل بـين الناس والـدفاع عن أراضي الإسلام وتوفير الأمن فيها وبسط حـدود السيادة الإسـلامية الى أبعـد مدى ممكن وإنفاق عائدات الضرائب طبقـاً للشريعـة. وإن خلفاء المـدينة، وأسـوة بأبـاطرة الرومان الأول، تقيدوا بهذه الخطة الرائعة ونفذوها بحذافيرها.

إن تلك المؤسسـات النظاميـة الأولية، والتي ستـظل في حـالتهـا الأولى الى فترة طويلة، كـانت في معظمهـا صنيعة الخليفـة عمرمثـاني خلفاء محمـدﷺ. إن هذا التنظيم الأبوي المعد للحفاظ على وحدة ظاهرة سيقاوم بصعوبة، كما سنرى، ردة فعل القـوى النابـذة. فالجيش، الـذي لم يكن الخليفة سـوى رئيسه الصوري، سيلعب لاحقاً دوراً رئيسيـاً في نقل الخـلافة. ومن جهـة أخرى فـإن حكام المقاطعات لن يلبثوا ان يعلنوا أنفسهم أمراء حقيقيين مستقلين عملياً.

٢ ـ الظروف العامة التي واكبت الفتح العسكري العربي وإقامة سيادة العرب السياسية وإنتشار دينهم ولغتهم.

إذا كـان العديـد من المؤرخين يـرون في الفتح العسكـري العربي سـرعته المدهشة وإمتـداده الشاسـع «كالحـدث الأكثر غـرابة في التـاريخ البشـري» فإنمـا يبدون في منظورهم هـذا وكأنهم يجهلون التـطور التاريخي للعـالم الشرقي خـلال الأزمنـة السابقـة. «إن هذا الفتـح، إذا ما وضـع في إطاره الشـرقي، فهو يشبـه

الفتوحات الكبيرة التي سبقته لا سيما فتوحات قورش والاسكندر الكبير وفي أزمنة قريبة فتوحات الأتراك.

ومن جهة أخرى لا يجب ان ننسى أن عرب الجزيرة العربية في القرن السابع كانوا شرقيين غير خاضعين لأي حكم أجنبي غربي وأن نصرهم على هذا الأخير لاقى ترحيباً حاراً من جانب العالم الشرقي كما رحبت الشعوب الآسيوية بإنتصار اليابانيين على الروس في مطلع القرن العشرين.

أ ـ ظروف الفتح العربي العامة

لقد رأينا أن أهم العوامل التي ساعدت الفتح العسكري الذي حققه عرب الإسلام في الشرق: ضعف الامبراطوريتين الكبيرتين البيزنطية والساسانية وتفككهما وقد كانتا تتقاسمان العالم في ذلك العصر، موقف الشعوب الشرقية اللامبالي لا بل المرحب والتي كانت خاضعة منذ قرون لليونان ـ الرومان والفرس وتنوء تحت وطأة الضرائب والرسوم، الإضطهاد الذي كانت تعاني منه تلك الشعوب نفسها بسبب إعتمادها على عقائد دينية[1] مخالفة للعقائد التي كان يؤمن بها سادتها البيزنطيون أو الفرس، ولادة القومية الشرقية كرد فعل على هيمنة اليوناني الغربي والفارسي الآسيوي، الطابع الشرقي لدى العرق العربي الذي كانت فروع عديدة منه قد إحتلت وعرّبت منذ قرون عديدة صحارى فلسطين وسورية والعراق وتخومها المزروعة، إنضمام تلك الشعوب العربية والمستعربة في الصحارى السورية والمابينهرية الى أبناء جنسها العرب القادمين من جزيرة العرب، والانتصارات العسكرية الأولى التي حققها العرب والتي زادت من نفوذهم، الخ...

ومن جهة اخرى فإن الشعور الديني لدى الفاتحين العرب كان له بالتأكيد دوره في تحقيق ذلك النصر العسكري الكبير للإسلام، وذلك بإثارته حمية الذود عند المقاتلين عن الدين الجديد والتضحية بالنفس والنفيس في سبيل ذلك ناهيك بأطماع المغانم التي هي عادة عامل قتال كبير لدى البدو وقد لعبت دوراً كبيراً لدى هؤلاء المقاتلين.

وأخيراً «فإن العرب لم يتقدموا كدعاة متعصبين أو هدامين فإكتفوا بسلب المقاطعات التي إحتلوها وقد كانت فائقة الثروة بشكل يتناقض مع الفقر الشديد الذي اتصف به موطنهم الأصلي. وقد تمتع قادتهم بنظرة بعيدة فتجنبوا إلحاق الضرر بالخيرات التي يمكن ان يحصلوا عليها فيما بعد في تلك البلدان.

ولـذا عـرفـوا كيف يستغلونها فتـركـوا المهـزومـين عـلى أرضهم وفـرضـوا عليهم زراعتها مع دفع جزء من عائداتها لهم.

ولم يُقـدم الفاتحـون العرب عـلى أية مـذابح إلا ضـد جنـود جيش العـدو المتقهقر تاركاً سكاناً مسالمين بلا دفاع وقد نجـح العرب بـإخضاعهم بـلا عنـاء. وفي حـين كانت هجمـات العرب في الأراضي السهليـة مناقضـة لكل القـواعـد وبرغم أنها حققت كل نجـاح وفاجـأت القادة البيـزنطيـين إلا أن احتلال المـدن المحصنـة كان أبـطأ. . . فكان أصغـر حصن يوقف تقـدم الجيش العـربي الـذي كان يكتفي بضرب حصار عليه مع القيام ببعض المحاولات لتسلقه. ولم ينجحوا في إحتـلال المدن الـواحـدة تلو الأخـرى إلا لكـون السكـان الـذين لم يستعـدوا لتموين بيوتهم قـد أصروا عـلى الإستسلام أو سهلوا دخـول العدو. وفي سـورية رحب اليهـود والمسيحيـون بـالعـرب بـلا خشيـة وسنـرى لاحقـاً كيف أن يهـود إسبانيا كانوا يفتحون لهم أبواب المدن»[4].

ب ـ دور الجهاد او «الحرب المقدسة»

إن دور الجهاد أو «الحرب المقـدسة» في الفتـح الاسلامي، عـلى أهميته، لم يكن العامل الحاسم في تلك الحرب. فالتعصب الديني الذي يدفع المحارب الى التضحية بحياتـه في سبيل هـدف سامٍ لم يكن يحـرك بعد كـل مقاتـلي الإسلام. فمعظم هؤلاء المقاتلين لم يكونوا قد تأثروا بعد بالدين الجديد الا سطحياً.

وعـلى أي حـال فجهـاد العـرب المعلن في سبيـل الله ونشـر حكمـه عـلى الأرض لم يكن أبـداً يتم، كما يعتقـد البعض، بمثل تلك الكـراهية العميـاء التي تميـز الحروب الـدينية حيث يتـذابح الأخصـام كالـوحوش. فـوصـايـا الـرسـول وخلفائه المبـاشرين والمـوجهة الى الجيـوش المكلفة بـالجهاد، كـانت تنطوي عـلى أنبل المشاعر الانسانية. وكانت تلك الوصايا تحرم استخـدام الخديعـة والمكر كـما تمنـع قتل الأولاد والنسـاء والمرضى وتمنـع اضطهـاد السكـان الآمنين أو تـدمـير البيوت والكنائس والأديرة واجتياح الأراضي المزروعة ونهبهـا أو تعذيب الـرهبان المسيحيين وكانت تترك للمهزومين حرية الاحتفاظ بـدينهم وعباداتهم شـريطة ان يدفعوا الجزية فتكون بمثابة ضريبة لحمايتهم.

4 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 147, 148.

ج ـ تسامح عرب الإسلام

إن تلك الوصايا الانسانية تشهد على مروءة عرب الجزيرة العربية ونبلهم وتسامحهم والتي تنعكس على دينهم الاسلامي ثمرة النفس العربية. فلا القرآن الكريم ولا الحديث الشريف ولا الوقائع التاريخية تبرر ذلك الاتهام بالتعصب الذي يوجه أحياناً الى الإسلام الأولي بل على العكس من ذلك فإن هذا الدين، وعلى غرار المسيحية، هو دين محبة وغفران. وإذا كانت أحداث مؤسفة سمحت بإعطاء أحكام مناقضة فإن تلك الأحداث التي وقعت في تاريخ متأخر جداً بعد التوسع الإسلامي خارج بلاد العرب هي من فعل الأشخاص المسلمين لا الدين الاسلامي. ومثل هذا أيضاً يقال في الدين المسيحي الأكثر وداعة والأكثر سلمية بين الأديان وغالباً ما إرتكبت بإسمه أعمال شنيعة.

إن عرب الجزيرة العربية القديمة، وهم أبعد من أن يكونوا شعوباً متعصبة وأسوة بعرب شبه الجزيرة العربية المعاصرة هم على العكس من ذلك فرديون ومتسامحون وأصحاب مروءة ومتحررون. وإذا كانوا قد قسموا الشعوب المحتلة الى طبقتين متميزتين وغير متساويتين: المسلمين وغير المسلمين فما ذلك الا لكون ذلك التمييز كان القاعدة السائدة في عصرهم. فالرومان هم أيضاً منحوا أنفسهم أيضاً في الامبراطورية التي أسسوها بقوة السلاح وضعاً قانونياً متفوقاً على وضع عامة الشعب المهزومة. إن الفاتحين العرب الفخورين بعرقهم والطامعين بالسلطة السياسية وباحتكار كل الوظائف والمداخيل الإدارية لأنفسهم لم يكونوا راغبين قط في اقتسامها مع السكان الأصليين من غير العرب. وحتى بعد تحول هؤلاء السكان المهزومين الى الإسلام وإكتسابهم الصفة القانونية كمساوين للعرب، فإنهم لم يكونوا يتمتعون في الواقع، وكما قلنا، بالامتيازات نفسها التي كانت ممنوحة الى العرب. وأما من الناحية السياسية فإن تسامح الفاتحين العرب كانت تدفعهم اليه اعتبارات مصلحية. ففي الدولة الاسلامية الأولى كان دافع الضرائب الرئيسي هو الكافر أو غير المسلم. وأصبح وجوده تبعاً لذلك ملحوظاً ومنظماً دستورياً من قبل المجتمع الإسلامي.

إن التعصب الديني الذي عرفه الإسلام، والإضطهادات التي نتجت عنه، كانت من عمل الأجيال اللاحقة وبخاصة من جانب الشرقيين الذين تعربوا وأسلموا والذين كانوا طامعين ليس بالدعوة إلى الدين الإسلامي بل في

إشباع حاجاتهم إلى السيطرة وإلى إستغلال أبناء جنسهم الذين ظلوا غير مسلمين.

وأما حيال الأجنبي فإن عدم التسامح هذا، أو على الأصح التعصب العربي ـ الإسلامي، فقد كان هو أيضاً سياسياً أكثر مما كان دينياً. فما يرفضه الإسلام لدى الأجنبي غير الملتزم، هو الروح التوسعية التي تهز كبرياءه وتهدد سيادته بأكثر مما هو المعتقد الديني لدى هذا الأجنبي الذي لا يبالي به الفاتح العربي. وإن ما يحاربه لدى الأقليات الدينية التي تعيش في كنفه فهو تشيعهم لقوى أجنبية أكثر مما هي معتقداتهم الدينية.

٣ ـ بدء الفتوحات الخارجية

أ ـ الخليفة أبو بكر (٦٣٢ ـ ٦٣٤)

إن أبا بكر الذي خلف النبيﷺ كان صديقه ورفيق هجرته وقائد أول حج إسلامي نحو مكة ووالد عائشة زوجة محمدﷺ المفضلة. ونظراً إلى شيخوخته التي كانت تؤهله لحكم قصير فقد وافقت كل الأحزاب على إختياره أملاً منها بممارسة النفوذ من وراء ظهر هذا الشيخ المتساهل نوعاً. وفي الواقع فإن خلافة أبي بكر كانت حكماً ثلاثياً ضم أبا بكر وعمراً وأبا عبيدة.

إن أبا بكر الذي ينتسب عن طريق أحد جدوده إلى أسرة النبيﷺ كان رجلاً على بساطة متناهية وقد إستحق لقب «الصدِّيق» وهو الذي يجسد روح الإسلام الأولي في صفائه وإيمانه الكلي وهو ضمير ذلك الإسلام وإرادته. فبفضل إرادته التي لا تتزعزع وثقته بحماية الله فإنه نجح في سحق تمردات القبائل التي ما أن توفي محمدﷺ حتى رفضت دفع ضريبة الزكاة المتوجبة وحال دون إنفصال المدينة عن مكة المكرمة.

وشرع، وهو متحل بالإيمان الذي يتغلب على كل العقبات وبواسطة جيوشه وكان عدد أفرادها لا يتجاوز ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ عربي، بعملية إخضاع العالم المجاور لشريعة الله. وخلال خلافته القصيرة التي لم تتعدَ السنتين كان فتح سورية وبلاد ما بين النهرين في أول الطريق.

ب ـ العقلية السائدة في جزيرة العرب

وبعدما نجح أبو بكر في إعادة سلطة الإسلام إلى جزيرة العرب بأسرها، أصبح بإمكانه أن يستأنف آخر مشروع للنبي وهو الشروع بغزوة

كبرى لمحو هزيمة أحد القاسية. وهذا المشروع سيتيح للخليفة أن يستخدم في الخارج الجيوش البدوية التي جنحت الى التمرد والصراعات الاهلية، بفعل عدم التحرك وتحريم الغزوات بين «الإخوة». فلوح لها أبو بكر بالتحرك خارج الجزيرة ومباشرة الجهاد أو الحرب المقدسة التي يأمر بها الله المؤمنين.

ومن جهة أخرى فإن المصالح الإقتصادية بالنسبة إلى المدينة ومكة المكرمة، وهما سوقان كبيرتان للقوافل على طريق العبور الدولي الذي تقع مداخله في سورية وبلاد ما بين النهرين، دفعت هذا الخليفة ومحيطه إلى إطلاق الجيوش العربية ـ الإسلامية المتأهبة في إتجاه تلك المناطق الشمالية. «فروحانية الإسلام ستتحول إلى مطية للتوسع موجهة في الوقت نفسه ضد فارس وضد الأمبراطورية البيزنطية» (بيرين).

«وإننا لنجد دائماً سبباً إقتصادياً وجيهاً يكمن في الأساس الغامض لأحداث تاريخ الشرق الأدنى الكبرى. لقد كان من السهل في الماضي تصوير الفتوحات الإسلامية وكأنها النتيجة الصاعقة لحرارة الإيمان الديني لدى رجال الصحراء المتعصبين بفعل التوحيد الإلهي القرآني، والذين أطلقهم محمدﷺ لإحتلال العالم القديم على متون جيادهم السريعة وأعنتها المشرئبة في الهواء. لكن مع الأسف علينا نسيان هذه الصورة البسيطة والأخاذة التي لا تعبر تماماً عن الواقع.

فقبل كل شيء لم تكن الجيوش الإسلامية مؤلفة وحسب من خيالة فالبدو كانت لديهم أعداد كبيرة من الجمال المدربة على الأسفار الطويلة والرحلات السريعة. وكان غيرهم يقاتلون سيراً على الأقدام وهم من البيّادة الذين لا يكلون عن السير. . . وإن اليمن، الذي أهله جميعاً من الحضر وكان قد ثار لفترة بعد موت النبيﷺ لكنه سرعان ما رضخ من جديد، قد شارك مشاركة فعالة في هذا الجهاد.

إن هؤلاء الرجال المختلفين للغاية من حيث أصلهم وحياتهم وعاداتهم، لم يكن قد أتيح لهم الوقت الكافي بعد وخلال بضع سنوات أو أشهر بأن يتشربوا الإيمان الإسلامي. لكن في شبه الجزيرة الشاسعة وحيث الصحراء تبدو وكأنها تباعد المساحات أكثر. ومع ذلك فالأنباء تنتقل بسرعة. لقد ذاع الخبر أولاً عن تشكيل قوة جديدة في الحجاز، وأن رسلاً أوفدهم النبيﷺ يطوفون البلاد داعين رؤساء القبائل إلى الخضوع لشريعة الله. فردّوا عليهم

واعـدين بالصـلاة ودفع الـزكاة لكنهم سـرعان مـا سئموا من دفـع تلك الـزكـاة . . . غـير أنه راحت تتنـاهى إلى أسمـاعهم أن زمـراً عـربيـة كـانت تصعـد إلى أمبراطوريـات الشمال الغنيـة وتعود منهـا بغنائم لا تصـدق. ومذّاك أخـذ عرب الصحراء يخرجون منها جماعات وهم في نشـوة الإنضواء إلى رايـة الإله المحسن. وخلال تلك الحملات لم تكن القبـائل مهيـأة لتبقى متحدة بـل كانت عنـاصرهـا تتفـرع إلى مجمـوعـات جـديـدة بحسب الـظروف. إن المعـارك القـاسيـة التي خاضوها والتي لم تكن كلها إنتصارات أقامت بينهم شعـوراً من التضامن العـربي والإسـلامي. وأخيراً راحت زمـر منهم متوزعـة في البلاد المفتـوحة، تستقـر فيها شيئاً فشيئاً بعد النصر. ومع أنها إستمرت في تزويد الجيـوش المحاربـة بالعنـاصر المتحـركة إلا أنها إعتمـدت أو إستعادت حيـاتهـا الحضـريـة، وقـد شكلت تلك الجماعات في البلاد المحتلة الطائفة الإسلامية الحقيقية. . .

إن الشعـور الـديني لم يُفضِ إلى تغيـير أولئـك النـاس إطـلاقـاً بـل بقي شعـوراً سطحيـاً عند معـظمهم. . . لكن العـرب، في تلك الحـروب، أظهـروا الصفـات التي يدينـون بها والتي تـلازم خشـونـة عيشهم الإجتمـاعي. . . فـإلى إعتـدادهم الأصلي أضيف شعـورهم بالإعتـزاز الكبير بـأنهم (خير أمـة أخرجت إلى النـاس) الشعب الذي إختـاره الله ليحل فيـه خـاتم النبيـين. . . إن التـأثـير الشخصي الذي مارسه القادة عـلى الجنود وعـلى الأحداث هـو أحد التفسيـرات التي أعطيت في التاريخ. وعلى أي حال فإن تأثير الزعماء هذا ينطبق إنْطباقاً كبيـراً مع حـاجة الجمـاهير إلى عبـادة ما، وهـو تأثـير حقيقي للغايـة بين الغـزاة العـرب. فـالمجتمـع البـدوي يسهـل جـداً تفكيكـه وتفتيتـه إلى فئـات أو أفـراد متنـافسين إلا أنـه يتقبل بشغف سلطة قـائد، إذا مـا كان مشهـوداً له بـالبـراعـة والقوة»[5].

ج ـ العالم الشرقي عشية الغزو

وأما في صفوف السـاسانيـين والبيزنـطيين فكـان الوضـع مختلفاً تمـاماً حيث كـان المسؤولـون يبـدون غـافلين عن الغليـان السـائـد في جـزيـرة العـرب وعن الإستعـدادات العدائيـة التي كانت عـلى وشك أن تتحـول إلى أعمال هجـومية. «فأمبراطوريتا الشرق (فارس وبيزنطية) لم تكونـا على بيّنـة واضحة مـن الوضـع في الجـزيرة العـربية لتخشى من هجـوم جدي. فهـما لم تواجهـا الزمـر الغـازيـة

5 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 138, 139, 140, 143, 144.

الأولى إلا بالفرق المنظمة لحماية الحدود ضد أعمال الغزو العادية. ولم يدرك الأمبراطور البيزنطي والملك الساساني إلا بعد هزائم متتالية أدت إلى تشتت القوات التي كانا يجمعانها بأعداد متزايدة بإستمرار،ضرورة قيامهما بجهد كبير، غير أنهما لم يعملا على تنسيقه»[6].

وإلى ذلك الإهمال من جانب الأمبراطوريتين البيزنطية والساسانية كان لا بد من إضافة عامل هو لامبالاة شعوب هاتين الأمبراطوريتين سياسياً فضلاً عن بغضها لأسيادها. «إن مصاعب الأمبراطورية البيزنطية كانت تضطرها إلى إرهاق رعاياها بالضرائب وكانت النزاعات الدينية بين القسطنطينية وأنطاكيا والإسكندرية تحرك الضمائر ناهيك بالتدخلات العنيفة التي تقوم بها السلطة الأمبراطورية والتي كانت تزرع الإضطراب في الحياة الإجتماعية. . . وإن تفكك المجتمع الشرقي، وأسوة بما كان عليه الوضع في الغرب، كان تاماً وشاملاً. وكانت الجماهير الشعبية بمنأى عن الشؤون العامة،ولم تكن مجبرة على أداء الخدمة العسكرية التي تبدو شعوب سورية وفلسطين غير مؤهلة لها،وكان الجميع يعيشون حالة نزاعات دينية»[7].

ومن جهة أخرى كانت المقاطعات الشرقية من الأمبراطورية البيزنطية (سورية ومصر)، كما رأينا،«تمزقها الخصومات الإجتماعية والدينية والقومية. فالمونوفيزيون، وقد كانوا كثراً في صفوف سورية ومصر الشعبية، لم يكونوا يمثلون مذهباً دينياً وحسب بل حركة ديموقراطية وقومية. وعلى الصعيد الديني كانوا ينظرون إلى مستقيمي الرأي بعداء متشدد، كونهم كانوا يرون في عبادة الثالوث وثنية حقيقية. وعلى الصعيد الإجتماعي والقومي كانوا يمثلون حزب الفلاحين المستعبدين الثائرين على كبار ملاكي الأراضي المتحولين إلى الهللينية. من هنا كان الإسلام المنبثق مباشرة من التوحيد اليهودي الصارم. . . يبدو أقرب إلى مفهومهم الديني ولم يكن في نظرهم على أي حال أكثر من مذهب مسيحي. . . ولهذا السبب إحتلت سورية بسهولة فائقة (٦٣٦) كما أن الإسكندرية القائلة بالطبيعة الواحدة إستقبلت المسلم عمراً (٦٤٣) مثلما إستقبلت بلاد الغال الكاثوليكية الوثني كلوفيس»[8].

وإلى جانب الكراهيات والصراعات الدينية التي كانت تواجه الشعوب

6 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 146.
7 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 145, 146.
8 Pirenne, *Les grands courants de l'Histoire universelle*, II, p. 5-6.

الشرقية بسادتها اليونان والفرس فإن هؤلاء اليونان والفرس أسهموا عن طريق الحروب المستمرة بينهما منذ أكثر من قرن في إلحاق تدهور لا يمكن إصلاحه في مملكتيهما ومهدا الطريق أمام أول فاتح. ويقول المؤرخ درمنغهام: «إن محمداً ﷺ جاء في أحد أحلك عصور التاريخ وفي وقت كانت فيه كل الحضارات من بلاد الغال الميروفنجية وحتى الهند تعاني من الدمار أو في فترة مضطربة».

إن العرب لم يواجهوا مقاومة شعبية حقيقية في أي مكان إذ كان فلاحو سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر سيان لديهم أن يدفعوا الضريبة لبيزنطية أو برسيبوليس أو المدينة. «وبالنسبة إلى الشرق، كما الغرب، فإن أي غزو كان يميل إلى أن يصبح ثورة إجتماعية» (ويلز).

د ـ ضعف المجتاحين العرب عددياً

إن هذا الإستعداد الذي أبداه العالم الشرقي للترحيب بمجتاح جديد وبخاصة العرب الذين هم على قرب به يمكن إثباته بوضوح من خلال العدد الضئيل نسبياً للمقاتلين المسلمين الذين قدموا من جزيرة العرب وغزوا سورية وفلسطين وبلاد ما بين النهرين ومصر وإيران. ناهيك بصعوبة حشد الجيوش في الصحراء ومدها بالمؤن فضلاً عن أن البدو، كسائر الشعوب الرحّل، لا يمكنهم الإبتعاد عن خيامهم وهم عاجزون عامة عن الحرب في مناطق بعيدة.

«وعندما توفي الرسول ﷺ في المدينة في حزيران ٦٣٢ كان حزبه يضم عدداً قليلاً من المؤمنين ويمكنه حشد جيش مؤلف من ثمانية آلاف رجل» (دوبون وأكهارد). وإن الجنرال بريموند الذي أورد هذا القول علق عليه قائلاً: «لقد أمكننا التثبت على الطبيعة العام ١٩١٦ ـ ١٩١٧ من صحة هذا التأكيد. فالحلفاء بما كان لديهم من موارد ووسائل تفوق أضعاف ما كان للنبي محمد ﷺ منها، لم يتمكنوا قط من جمع أكثر من أربعة عشر ألف رجل أمام المدينة، في قلب بلادهم. وعندما إقتضت الظروف أن نسيّر حملة معاً ضد دمشق لم يوافق أي بدوي على الخروج من الحدود الجغرافية لقبيلته والإبتعاد عن خيمته...

وفي بدر العام ٦٢٤ لم يكن لدى النبي ﷺ سوى ثلاثة خيالة و٣١١ جندياً فقط. ويوم هزيمته في أحد العام ٦٢٥ كان لديه ألف رجل. وفي شهر شوال من العام الخامس للهجرة مشت قبيلة قريش ضد المدينة بعشرة آلاف

رجل. . . وأما النبي فلم يتمكن من جمع أكثر من ثلاثة آلاف رجل في معركة الخندق. . . وإن الحملة الأولى ضد غساسنة دمشق العام ٦٣٠ كان قوامها ثلاثة آلاف رجل وقد دمرت تقريباً. وأما الحملة الثانية، وقد قادها النبي بنفسه ـ والتي لم تتجاوز تبوك، لم ترَ العدو فإنكفأت من تلقاء نفسها عائدة «لشدة حر الصيف» ـ وكانت تضم بحسب قول المؤرخ سيديلو عشرة آلاف خيّال وعشرين ألف رجل مشاة وإثني عشر ألف ناقة. غير أنه تكفي زيارة جزيرة العرب للتأكد من أن هذا العديد المماثل لا يمكن جمعه هناك كما لا يمكنه العيش فيها. إنه لمن المستحيل خصوصاً في ذلك العهد البعيد إعاشة ٣٠,٠٠٠ رجل وعلف ٢٢,٠٠٠ حيوان. ففي العام ١٩١٦ ـ ١٩١٧ لم نتمكن من مدّ الأربعة عشر ألف رجل المحشودين أمام المدينة، إلا بما يكفي لثمانية أيام فقط بالمؤن برغم الموارد الضخمة التي كانت تصلنا بالبواخر البخارية من الهند ومصر. وأما العشرة آلاف خيّال (هم بحاجة إلى أربعماية طن من مياه الشفة يومياً!)، فكان من المستحيل في ذلك العصر كما هو مستحيل علينا اليوم، تزويدهم بالجياد، بل إنه آخر المستحيلات. . . فالجواد يتطلب الماء والكلأ ولذا فهو لا يمكنه العيش إلا في البلاد المروية. . . إن عجز عرب الحجاز عن القيام بحرب خارج أراضيهم ظلت على ما كانت عليه حتى اليوم. فالبدو لا يمكنهم الإبتعاد عن خيامهم التي تتوقف كل حياة فيها عندما يغيبون. . . هذه حال البدو.

عندما قاد النبيﷺ بنفسه حملة ضد الرومان البيزنطيين أو بالحري ضد العرب الغساسنة المتضامنين مع الأمبراطورية البيزنطية، لم يتمكن من حمل جيشه على تجاوز تبوك التي تشكل حدود الحجاز، وراح عبثاً يهدد ذلك الجيش بنار جهنم التي «يفوق حرها حر صيف الصحراء العربية بكثير». لكنه عفّ في النهاية عن المضي قدماً. وعندما توصل الخليفة عمر (٦٣٤ ـ ٦٤٤) إلى إقناع جيشه بذلك هاجمته النساء البدويات إحتجاجاً وقد تُركن وحيدات بلا رجال. . . وفي خريف العام ١٩١٨ عندما مشى جيش فيصل من العقبة ضد دمشق، وبرغم نفوذ الأسرة الهاشمية والرواتب العالية التي كانت تدفع بسخاء إلى الجنود، فإن بدوياً واحداً من الحجاز لم يوافق على إتباع الأمير إلى ما وراء حدود نطاق اتحاد قبائل بني حرب والدخول إلى سورية. . .

إن البدو، في عهد النبيﷺ، كانوا كذلك. فكيف أمكنهم إذن فتح سورية التي كانت تعد يومها ١٢ مليون نسمة ثم فارس ومصر اللتين كان فيهما مثل هذا العدد وخلال حروب دامت من العام ٦٣٢ حتى العام ٦٤٠

أي ثماني سنوات في حين لم يكن يتجاوز عـدد سكان الحجـاز حينها المـايتي ألف نسمة بحسب التقديرات المتناقلة وقد كانت في حـالة يـرثى لها ومتخلفـة في حين كانت سورية وفارس ومصر في طليعة حضارة ذلك العصر؟»[9].

لقد كان أهالي سورية ومصر وإيران الناقمون، كما قلنـا، هم الذين تبنـوا قضيـة المجتاحـين العرب فـدخلوا في جيوشهم وزادوا من عـددهم. وكـان عـلى الأخص العرب المسيحيون من بدو وأنصاف بـدو من شرق سـورية (الغسـاسنة) وغرب بلاد ما بين النهـرين (الحيرة) وشمـال الصحراء السـورية الفلسـطينية هم أول من تخلى عن عاهليهم البيـزنطيـين والفرس الـذين كانـوا يضطهـدون دينهم وإنـدفعوا لـلإنضواء تحت رايـة أبناء جنسهم العـرب القـادمـين من الجنـوب ثم إعتنق معظمهم الإسلام.

«ويمكننا أيضاً أن نضيف بأنهم كانـوا أفضل المسلمـين لأنهم كانـوا يؤمنون بإله واحد يدعـونه الله وكـانوا يؤدون الصـلاة وهو مـا لم يكن يفعله بدو الحجـاز دائماً»[10]. فمنذ قرنين أو ثلاثة قرون كان عرب الحيرة وغسان وهم من المسيحيين المونوفيزيين أو النساطرة الذين يعبدون الله كإخوتهم المسلمين، «يصومون ويؤدون الصلاة التي يتخللها ركوع متكرر بل سجود أيضا ويقدمون الصدقات ويعقدون الحلقات الدينية».

هـ ـ العرب يبدأون الهجوم

إن الخليفـة أبا بكـر، الذي جنـد البدو في جيشـه، أخـذ يعـدهم للفتـح الخارجي بتنظيم عمليات كانت تشن على حدود سورية وتمهد لأسلمة القبائل العربية في تلك المنـاطق. وقد كـان لتلك القبائـل، كما نعلم منـذ قرون عـديدة في تلك البقعـة، دورها في إحـداث تغلغل عـربي في الشمـال ممـا مهـد الـطريق أمـام غزو الإسـلام لفلسطين وسـوريـة. ومن جهـة أخـرى فـإن غـزو اليمـامـة وإنتزاعها من يد نبي مزيف كـان قد ظهـر فيها (مسيلمـة الكذاب) ومـا تلاه من إحتـلال عسكري للبحـرين التي كـانت خـاضعـة لسلطة السـاسـانيـين، جعـل العرب والفرس أمام المواجهـة في منطقـة الفرات ومهـد لضم العراق إلى الـدولة العربية.

9 Général Brémond, *Berbères et Arabes*, p. 33-37, 42-43.
10 Nau, cité par Brémond, *op. cit.*, p. 92.

و ـ ضم عرب الحيرة (٦٣٣)

في العام ٦٣٢، وبأمر من الخليفة أبي بكر، شن القائدان العربيان المثنى بن الحارث وخالد بن الوليد حملة ضد الحيرة عاصمة مملكة اللخميين العرب القديمة والتي تحولت منذ هزيمة آخر ملوكها العام ٦٠٢ إلى مقاطعة فارسية. وإستولى المسلمون على الحيرة بمساعدة عرب تلك البلاد المناهضين للفرس (٦٣٣).

ز ـ إنتصار اجنادين، في اليهودية (٦٣٤)

وفي ربيع العام ٦٣٤ قام جيشان عربيان أحدهما بقيادة عمرو بن العاص، فاتح مصر العتيد، بإجتياح جنوب شرق فلسطين فإستدعي خالد بن الوليد من بلاد الحيرة فخف على رأس نخبة من خيّالته وإحتل شرق الأردن ثم ذهب لمساعدة عمرو. وفي تموز وقعت في أجنادين في اليهودية أول معركة كبرى ضد البيزنطيين وقد أحرزت الجيوش العربية الثلاثة نصراً فيها (٦٣٤).

وكان خالد، الذي برز خلال تلك المعركة، يستعد لمنازلة اليونانيين في المعركة الحاسمة عندما بلغه نبأ وفاة الخليفة أبي بكر (٦٣٤).

II. فتح الشرق المتوسطي

١ ـ الخليفة عمر وتأسيس أمبراطورية المدينة العربية ـ الإسلامية الكبرى

أ ـ الخليفة عمر (٦٣٤ ـ ٦٤٤)

إذا كان محمدﷺ المشترع الملهم هو مؤسس الوحدة الدينية والقومية في جزيرة العرب، فإن الخليفة عمر بن الخطاب الذي ولي سدة الخلافة بعد أبي بكر هو «قائد الإسلام المنتصر ومنظمه». فخلال خلافته التي دامت عشر سنوات فإن كل الشرق التقليدي أو المتوسطي أي سورية وبلاد ما بين النهرين ومصر وفارس سيضم إلى أمبراطورية المدينة العربية الإسلامية الفتية.

إن عمراً يعتبر المشترع الكبير في الإسلام في نطاق السُنّة الإسلامية وسوف يستند الفقهاء لاحقاً إليه في دعم عقائدهم. إنه الخليفة الأسطوري، الحازم والمرموق، البسيط في طعامه ولباسه، المتأهب دوماً لفرض هيبة العدل في أمبراطوريته الواسعة.

«كان عمر بمثل بساطة محمدﷺ وأبي بكر وسطوتهما وبقي كذلك حتى بعد إنتصاراته الباهرة. وهو يذكرنا ببعض الأباطرة العسكريين في روما القديمة. كان فاتحاً وإدارياً معاً، ولم يكن حازماً وحسب بل كان بارعاً في الإفادة من الظروف ومن الأفراد ومن الحماسة الدينية... كما يعود الفضل إليه مبدئياً في تنظيم أو بالأصح في تكييف البلاد المفتوحة»[11].

ب ـ إحتلال دمشق (٦٣٥)

وفي كانون الثاني ٦٣٥ فإن خالداً بن الوليد، الذي إلتحق العام ٦٣٤ مع خيالته بجيوش عمرو بن العاص العربية في الأردن وأوقع الهزيمة

11 Massé, *op. cit.*, p. 39.

بالبيزنطيين في اليهودية، قام بمهاجمة الأعداء الذين تجمعوا من جديد قرب بيسان (الأردن) وأجبرهم على التقهقر وطاردهم حتى ضواحي دمشق التي إستسلمت بعد ستة أشهر من الحصار (٦٣٥)

ج ـ فتح كلده (٦٣٥)

منذ إستيلائهم على الحيرة (٦٣٣) غرب منطقة الفرات السفلى، أخذ العرب يسعون للدخول إلى بابل الفارسية حيث أرسل عمر منذ توليه السلطة تعزيزات عسكرية بقيادة أبي عبيدة.

وخلال معركة أولى قرب الحيرة هزم العرب وقُتل أبو عبيدة (٦٣٤) غير أن الفوضى التي إستحكمت ببلاط الساسانيين حالت دون الإفادة من هذا النصر. وأما العرب فما لبثوا أن إستدركوا هزيمتهم الكبرى تلك بتحقيق النصر في معركة تالية.

وفي العام ٦٣٥ وقعت المعركة الحاسمة في القادسية على بُعد ٣٠ كيلومتراً من مخيم الكوفة العسكري حيث تمكن العرب من إلحاق هزيمة كبرى بالفرس بدعم من أبناء جنسهم في الحيرة لاسيما قبائل تغلب وبكر وموصول العربية المسيحية التي خبرت خلال قرون تنظيم الحملات على الفرس في تلك الربوع. ثم تقدم العرب المنتصرون عن طريق وادي الفرات وإجتاحوا بابل وإستولوا على كتيزيفون (المدائن) عاصمة الأمبراطورية الساسانية في بلاد ما بين النهرين التي سارع الفرس إلى إخلائها (٦٣٥). وأخيراً وفي العام ٦٣٧ هزم الفرس مرة جديدة في جلولاء على طريق القوافل القديمة بين بابل وإيران. وإضطر الملك الساساني إلى اللجوء داخل بلاد فارس (٦٣٧).

د ـ نصر اليرموك (٦٣٦)

وفي العام ٦٣٦ نجح جيش بيزنطي يضم بضع فرق عسكرية عربية مسيحية من بني غسان ومؤازريهم الآراميين في صدّ هجمات إسلامية عديدة على ضفاف اليرموك وهو رافد لنهر الأردن. لكن وفي اليوم الثالث من المعركة تخلى العرب المسيحيون في الجيش البيزنطي عن قائدهم جبالة الذي ظل مخلصاً للأمبراطور، وإنضموا إلى صفوف العرب المسلمين الذين أحرزوا النصر (٦٣٦). «إن الفيالق (البيزنطية) وعلى عادتها دائماً كانت تفتقر إلى الخيالة اللازمة... وكانت الجيوش الأمبراطورية قد إتكلت على القوات العربية المسيحية المساندة. لكن هذه القوات إلتحقت بالعدو ما ان تواجه

الجيشان. . . وما أن إنسحبت تلك الخيالة غير النظامية حتى كانت النتيجة واضحة للعيان. فمحاولة الجيش البيزنطي بالإنسحاب أدت إلى عملية تقهقر وإنتهت بمذبحة. فلقد كان الجيش البيزنطي يحارب مديراً ظهره إلى النهر الذي سرعان ما سُد مجراه لكثرة ما تساقط من هذا الجيش من قتلى»[12].

هـ ـ فتح سورية وفلسطين (٦٣٧)

إنْ نصر اليرموك أتاح للعرب الذين صعدوا نحو الشمال ان ينجزوا إحتلال سورية وفلسطين.

وأقام الجيش العربي مقره العام الكبير جنوب دمشق في الجابية وهو مقر ملوك غسان العرب القدامى. وقد شهد هذا الموقع المحصن، الذي إحتفظ بأهميته العسكرية حتى أيام الخلفاء الأمويين، العام ٦٣٧ وصول الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه قادماً من المدينة. إن هذا الخليفة الذي كان محاطاً بأبرز صحابة النبي إنما جاء لتنظيم البلاد المفتوحة وتحديد أسس نظام النفقات التي ينبغي منحها للمجاهدين ولذريتهم.

من الجابية أرسل الخليفة عمر قوة لمحاصرة أورشليم فإستسلمت تلك المدينة بسرعة إلى الخليفة نفسه وحظيت بشروط صلح معتدلة نسبيا (٦٣٧). فضمن الخليفة المنتصر للمسيحيين أمنهم وسلامة ممتلكاتهم كما سمح لهم بالإحتفاظ بكنيستهم وبحريتهم الدينية على أن يدفعوا الجزية العادية. وخلال إقامته في القدس أرسى الخليفة عمر أسس المسجد الذي ما يزال إلى اليوم يحمل إسمه.

وكان لسقوط القدس وقع كبير. فبيزنطية التي أنهكت بحروبها مع فارس لم تعد لديها القدرة على تجنيد المرتزقة من المناطق الحدودية السورية. وبعد المدينة المقدسة سقطت حلب وأنطاكيا وقنسرين كما سقط كل شمال سورية بعدها في أيدي الفاتحين العرب. فيما إنضم المسيحيون في تلك المقاطعات البيزنطية إلى أبناء جنسهم المنتصرين. ولقد خاطب القائد العربي المسلم في تلك المنطقة العرب المسيحيين في تكريت مقر البطريرك المونوفيزي في الشرق قائلاً: «أنتم منا. فما هو الرابط المشترك بينكم وبين اليونان؟» وإن المؤرخ ناو

12 Wells, *op. cit.*, p. 301-302.

الذي أورد هذا الحديث أضاف قائلاً: «لقد كانت هناك فكرة جلية تماماً حول القومية العربية المناقضة لليونان»[13].

إن معركة اليرموك التي حطمت قوة البيزنطيين وثقتهم أظهرت للأمبراطور هيراقليوس أن سورية التي إستعادها لتوه من الفرس (٦٢٨) قد ضاعت إلى الأبد. وان سورية، التي تخلى عنها الأمبراطور البيزنطي بتراجعه إلى ما وراء جبال طوروس والتي خضعت للنفوذ الهلليني حوالي ألف سنة، ستستعيد عما قريب وتحت حكم العرب، صورتها وثقافتها وحضارتها السامية.

وأوكل عمر حكم سورية إلى معاوية إبن أبي سفيان كاتم سر النبيﷺ سابقاً. وهذا التعيين (٦٣٧) كان في أساس النجاح السياسي الذي عرفه معاوية الذي أسس السلالة الأموية فضلاً عن الأمبراطورية العربية ـ السورية الأموية.

و ـ فتح بلاد ما بين النهرين الشمالية (٦٣٩)

وبعدما أصبح العرب أسياد فلسطين وسورية وبلاد ما بين النهرين الجنوبية عمدوا إلى فتح بلاد ما بين النهرين الشمالية التي كان سكانها الساميون ـ الآراميون، كما نعرف، مضطهدين بإستمرار إما من الأرثوذكسية اليونانية بسبب إيمانهم بالمونوفيزية أو النسطورية أو من الفرس بسبب دينهم المسيحي. وكانت بلاد ما بين النهرين الشمالية، كما كانت سورية وكلده، مهيأة بدورها لتقبل هذه الموجة العربية الجديدة القادمة. فمنذ قرون عديدة، كما سبق وقلنا، فإن البدو العرب سبق أن دخلوا إلى تلك البلاد في أيام مملكتي قدس وتدمر.

وكما دخل الكنعانيون والأموريون وسواهم من الساميين القدماء القادمين من الجنوب إلى بلاد ما بين النهرين عن طريق أمورو القديمة (سورية) فإن الساميين العرب الجدد إنطلقوا إلى منطقة أشور القديمة من حمص وقنسرين. وفي العام ٦٣٩ تم إجتياح تلك البلاد وإستسلمت معظم مدنها خلال سنة ونصف السنة. حتى أن العرب وصلوا في إحدى حملاتهم العام ٦٤١ إلى أرمينيا.

13 Nau, cité par G. Brémond, *Berbères et Arabes*, p. 95.

وكما إنتزعت سورية من البيزنطيين، هكذا إنتزعت بلاد ما بين النهرين من يد الفرس وإستعادت شخصيتها السامية. إن منطقتي بلاد ما بين النهرين القديمتين أي بابل ـ كلده أو بلاد ما بين النهرين الجنوبية وأشور أو بلاد ما بين النهرين الشمالية ستغدوان تحت حكم العرب، الأولى العراق العربي والثانية الجزيرة.

ز ـ فتح مصر (٦٤٠ ـ ٦٤٢)

وبعد سورية وفلسطين ومنطقتي بلاد ما بين النهرين بدأ فتح مصر وفارس بحد ذاتها في وقت واحد تقريباً العام ٦٤٠ وقد تكلل فتحهما في نهاية العام ٦٤٢.

إن فتح مصر الذي تحقق بقوات محدودة العدد نسبياً كان يمكن أن يكون غريباً تفسيره لو أن العرب واجهوا عند دخولهم سكاناً معادين. فكما حصل في سورية، كان العدو بالنسبة إلى المصريين المونوفيزيين هو اليوناني. وبحسب المؤرخ يوسيفوس كانت مصر اليونانية ـ الرومانية تعد ثمانية ملايين نسمة على الأقل، كان معظمهم من الذين يمكن تسميتهم اليوم بالقوميين من المسيحيين المونوفيزيين وتالياً فهم معادون لبيزنطية وعقيدتها الدينية الأرثوذكسية.

وعند وصول العرب كانت كراهية السكان المصريين الأصليين أو الأقباط لليونانيين والقسطنطينية في أوجها. فبطريرك الإسكندرية وحاكم مصر المدني قيروس المعين من قبل الأمبراطور هيراقليوس وكان سابقاً أسقف فازيس في القفقاس (لذا سماه العرب بالمقوقس)، كان منذ تعيينه العام ٦٣١ قد طبق في مصر سياسة إكليريكية تعسفية. فراح يفرض على المونوفيزيين ضرائب مالية باهظة إلى حد دفعت هؤلاء، مثلما دفعت أبناء ديانتهم في سورية، إلى مد أيديهم مرحبين بالعرب كمحررين.

في العام ٦٤٠ قام عمرو بن العاص الذي كان قائداً عاماً لجيش فلسطين ومن تلقائه، على ما يبدو وبقوات غير كافية، بإحتلال بيلوز (فاميا) في الدلتا الشرقية. فسارع الخليفة عمر إلى إرسال خمسة آلاف مقاتل، معظمهم من السوريين، بقيادة الزبير لتعزيز وحدات عمرو وفي الوقت نفسه لمراقبة الميول الإستقلالية الشديدة لدى هذا الأخير.

وإنسحب اليونان، بعد هزيمتهم في هليوبوليس، إلى قلعة بابيلون التي كانت سابقاً ممفيس الفراعنة. ولما كان الأمبراطور البيزنطي بحاجة إلى جنود في

القسطنطينية نفسها وإيطاليا فقد ترك بابيلون بلا تعزيز. وكان المقوقس الذي عاد لتوه من القسطنطينية يحمل كل الصلاحيات الضرورية لمفاوضة الفاتحين. فتم الإتفاق على أن يسمح للمسيحيين بالإحتفاظ بكنائسهم وإدارة شؤون طائفتهم لقاء دفع جزية مالية. فجلا البيزنطيون عن الإسكندرية (٦٤٢) وإحتلها العرب. وشيد عمر في الفسطاط، وهي مقر قيادة الجيش العربي في مصر والتي ستصبح فيما بعد القاهرة القديمة، المسجد الشهير الذي ما يزال حتى اليوم يحمل إسمه.

إن الرواية القائلة بأن العرب أحرقوا حينها مكتبة الإسكندرية الكبيرة تم دحضها اليوم. فتلك المكتبة الذائعة الصيت، كما هو معلوم، أحرقت قبل سبعة قرون من ظهور الإسلام خلال المعركة التي نشبت بين جيوش بطليموس الثاني عشر وجيوش يوليوس قيصر العام ٤٨ق.م. وكما فعلوا في سورية، أبقى العرب على الموظفين المحليين في وظائفهم. ورحب بالدين الجديد وإعتنقه عدد كبير من المصريين. «وكانت مصر أكثر ما تكون مدعاة للدهشة عندما تحولت إلى المسيحية ولم تكن الحاجة يومها تدعو إلى وجود غزو». ففي عهدين متلاحقين قدّمت عقيدة المسيح وعقيدة محمدﷺ إلى الجماهير المصرية المحرومة دائماً والتواقة إلى الإصلاحات الإجتماعية الأمل بنهاية إضطهادها وبؤسها. إذ ومنذ العصور القديمة، كما رأينا، كان المصريون يغيّرون أيضاً دينهم في كل مرة يقوم فرعون كبير مصلح بإختيار إله سلالي وقومي جديد.

ح - فتح فارس (٦٤٢)

عندما إرتقى آخر الملوك الساسانيين يزدجرد الثالث العرش العام ٦٣٢ كان العرب قد بدأوا هجومهم على مقاطعات بلاد ما بين النهرين الفارسية لا سيما على مملكة الحيرة العربية السابقة غرب الفرات الجنوبي. ومنذ العام ٦٣٥، كما رأينا، فإن بلاد كلده السامية وهي المركز السياسي لأمبراطورية الفرس ومقر عاصمتها كتيزيفون، والتي كانت متعبة من التعصب السياسي والديني من جانب السلالة الملكية الساسانية القديمة، كانت قد إستسلمت إلى العرب. فيما فرّ يزدجرد ولجأ إلى حلوان عند مدخل معابر جبال زاغروس. ومن ثم وبعد هزيمته في جلولاء (٦٣٧) وتقدم العرب، إنتقل الملك الساساني العام ٦٤٠ إلى برسيس أو فارس نفسها ليعد العدة دفاعاً عن قلب الأمبراطورية.

إن الساسانيين، المنهكين إثر سنوات طويلة من الحرب مع البيزنطيين، كانوا قلقين أيضاً من جهة آسيا من الخزر القفقاسيين وأتراك بختريان. وكان تفكك فارس الداخلي وترديها يسهلان نجاح الغزو العربي. فالأمبراطورية الفارسية، وقد هزمها الروم البيزنطيون العام ٦٢٨، إضطرت للجلاء عن سورية وفلسطين ومصر ثم إجتاحها هيراقليوس ولم تَنجُ إلا بإلتماس الصلح.

«ومنذ ذلك الحين راحت الأمبراطورية الساسانية تتدهور بإستمرار فهي لم تمتلك يوماً الأساس المتين الذي يوفره عرق موحد. فقدماء الآريين المهاجرين إليها كان عددهم قليلاً جداً قياساً إلى السكان الأصليين من العرق الشرقي لذا تم إندماجهم، بشكل شبه كامل، بهؤلاء السكان برغم الأمر الديني الذي يلزم الزرادشتيين على عدم الزواج من أجانب حرصاً على نقاء عرق قبيلتهم. وهكذا فإن خصائص السكان الأصليين الجسدية رجحت نهائياً على ما عداها. كما أن اللغة التي فرضها المستوطنون على رعايا دولتهم تأثرت بعمق بلغات هؤلاء الرعايا. ومنذ أن نقل الساسانيون مركز ثقل أمبراطوريتهم إلى بابل وعاصمتها كتيزيفون ـ سلوقيا فإن المسيحيين الآراميين تسببوا لهم بمشاكل كثيرة»[14].

وفي العام ٦٤٢ إستولى العرب على كرماسين شمال شرق حلوان التي فتحت لهم مدخل الهضبة الإيرانية وأحرزوا على قائد الجيش الفارسي فيروزان نصراً كبيراً في نهوند جنوب إيكباتان، همذان الحالية (٦٤٢). وراح أفراد الجيش الفارسي، الذي تشتت إثر هذه الهزيمة، يلجأون إلى المدن المحصنة على أمل الدفاع عنها كل واحدة على حدة.

وفي العام ٦٤٣ سقطت مدينة أصفهان الهامة، حيث إلتجأ الملك يزدجرد الثالث إثر هزيمته في نهوند، في يد العرب فإنسحب الملك الفارسي إلى إصطخر أو مدينة برسيبوليس سابقاً، عاصمة الفرس ومهدهم. ومن هناك راح آخر ملوك الفرس الساسانيين يهيم على وجهه عبر إقليمي طرابستان وخراسان كما فعل قبله بألف عام (٣٣١ق.م.) الملك داريوس الثالث آخر ملوك الفرس الأخمينيديين عندما فرّ من وجه هازمه الإسكندر الأكبر. ومثلما حصل لداريوس الذي قتله شخص من بطانته الملكية خلال فراره تكرر الأمر نفسه مع يزدجرد الذي قتله طحان في مدينة ميرف كان قد آواه (٦٥١). وما يزال البارسيس

14 C. Brockelmann, *Histoire des peuples et des Etats islamiques*, p. 51.

المقيمون في الهند والذين هاجروا من فارس بعد الغزو العربي يكرمون إلى اليوم ذكراه.

وللمرة الأولى منذ تفكك أمبراطورية الإسكندر الأكبر فإن البرزخ الإيراني فُتح أمام حركة التجارة والأفكار وراح يصل العالم المتوسطي وآسيا الوسطى والجنوبية. وإن هذا الحدث الذي سينقل مركز الثقل الإقتصادي في العالم الشرقي بنقله طريق الهند من الجنوب إلى الشمال سيؤدي تالياً إلى نقل المركز السياسي للأمبراطورية العربية بحيث لن تلبث أن تحل محل المدينة فيما تخلف سلالة الخلفاء الأمويين خلفاء المدينة الراشدين.

٢ ـ في عهد الخليفة عثمان (٦٤٤ ـ ٦٥٦).

إنحطاط أمبراطورية المدينة

أ ـ الخليفة عثمان

إن الخليفة عمراً أثناء إحتضاره أوكل إلى ستة أشخاص مشهود لهم مهمة إختيار خلف له. فوقع إختيار هؤلاء على أدناهم شأناً وهو عثمان بن عفان (٦٤٤ ـ ٦٥٦) من أسرة أمية فتمت مبايعته بالخلافة. وكان عثمان متقدماً في السن وضعيفاً مما جعله عرضة لتأثير أبناء عشيرته من بني أمية فأصبح مطية لمطامعهم الجامحة. فأمسك إبن عمه مروان زمام إدارة شؤون المدينة وسلمت كل مناصب الحكام الهامة لولايات سورية والعراق ومصر إلى أعضاء من أسرته. وحصل إبن عمه معاوية، وكان حاكماً على سورية منذ العام ٦٣٧، على صلاحيات مطلقة.

غير أن الدفع القوي الذي أعطاه عمر إلى الأمبراطورية جعل سياسة الفتوحات تستمر بشكل نظامي أيام خلفه الضعيف عثمان. وراح معاوية حاكم سورية يتصرف وكأنه الملك فإحتل جزيرة قبرص وفرض الجزية على أمراء أرمينيا وأخضع القبائل البربرية في طرابلس الغرب. وفي فارس تقدمت الجيوش الإسلامية حتى الأوكسوس. ولكن تلك الحملات البعيدة كانت شاقة ومكلفة وباتت الغنائم أقل. ومن جهة أخرى فإن إقبال الشعوب المغلوبة على إعتناق الإسلام قلل من كمية الضرائب. ناهيك بأن حب الترف والكماليات المكتسب في البلاد المفتوحة أخذت عدواه تنتقل إلى الفاتحين مما أحدث إضطراباً سياسياً أدى إلى إضطرابات في المقاطعات.

ب ـ يقظة الميول الإقليمية

وفي حوالي ذلك العصر بدأ توتر كبير يلوح بين مقاطعتي سورية والعراق. إن هذا التنافس الذي هو إمتداد للتنافس الذي جابه دوماً هذين البلدين في الماضي بقي في خطه التصاعدي. فتجلى بادىء بدء في خلاف على تحرير نسخ القرآن الكريم التي كان جنود سورية والعراق يحملونها على أجسامهم. ولقطع دابر هذا الخلاف الذي بدأ يثير أعمال عنف أمر عثمان بتحرير نسخة نهائية للقرآن الكريم وفرض نصاً موحداً له على جميع مقاطعات الأمبراطورية. إن هذا الإصلاح الذي طال معتقدات دينية مغايرة لتلك التي تنطوي عليها النسخة الموحدة من الكتاب الكريم أثار أحقاداً جديدة ضد الخليفة بحيث حاول منافسوه القدامى إستغلالها لصالحهم. وأخيراً فإن سياسة الأسرة التي كان يمارسها عثمان أثارت عليه حفيظة صحابة محمدﷺ وخصوصاً أرملته الشابة عائشة «أم المؤمنين». وإن المقاطعات أو المحافظات، التي وعت أهميتها وتفوقها في الأمبراطورية، سوف تستغل الإستياء العام لتشن صراعاً علنياً ضد الخليفة. فراحت أصوات ترتفع متهمة النسخة الرسمية للقرآن الكريم بأنها مغلوطة وناقصة. وفي العام ٦٥٥ إنفجرت أول عاصفة في الكوفة فتم قمعها بسرعة وسلميا على يد عثمان. وفي العام ٦٥٦ جاء خمسماية عربي من مصر إلى المدينة مطالبين بعزل حاكمهم. وأيدتهم في رأيهم غالبية أهل المدينة. فقام تمرد يقوده سراً علي بن أبي طالب وعائشة، التي كانت تتحرق على لعب دور. فإقتحم الثائرون منزل عثمان ونهبوه وقتلوا عثمان نفسه فيما كان يتلو القرآن الكريم. وسال دم عثمان على نسخة الكتاب الكريم وقامت زوجته بدفن جثمانه سراً تحت حلك الظلام يساعدها بعض الأصحاب.

٣ ـ في أيام حكم علي (٦٥٦ ـ ٦٦١).
حرب أهلية، إنشقاقات دينية وإنهيار أمبراطورية المدينة.

أ ـ الخليفة علي

علي هو رابع الخلفاء الراشدين وآخرهم. «تميزت السنوات الخمس التي قضاها علي في سدة الخلافة بالفتنة والإنقسام والإضطراب» (غودفروا دو مومبين).

كان علي صهر الرسولﷺ ومن أقرب صحابته. وقد نودي بعلي خليفة في المساجد في اليوم نفسه الذي إغتيل فيه الخليفة عثمان. لكن هذا الإختيار

لم يَرُق لعائشة «أم المؤمنين» كما يبدو فدعت المسلمين للثأر من مقتل عثمان. وقد أعلن منافسو علي: طه وبخاصة الزبير إبن أخ خديجة زوجة الرسولﷺ الأولى وأخيراً معاوية حاكم سورية وإبن عم عثمان، رفضهم للخليفة الجديد. عندها بدأ الإنشقاق السياسي الأول يرتسم بين مقاطعات العالم الإسلامي.

ب ـ الحرب الأهلية: وقعة الجمل (٦٥٧)

إن علياً، وقد كان معزولاً في المدينة المعادية له ولا جيوش تحميه وبعد خمسة أشهر من المناداة به خليفة، غادر العاصمة متجهاً إلى العراق آملاً أن يلقى العون من الجالية العسكرية في الكوفة حيث أقام مقره. ثم مشى على رأس ١٢,٠٠٠ من أهالي الكوفة بإتجاه مخيم البصرة العسكري حيث سبقه إلى هناك منافساه طه والزبير فألحق بهما هزيمة ساحقة (٦٥٧). أما عائشة التي كانت تمتطي صهوة جمل، وتشد من عزيمة المقاتلين، فقد أسرت ثم أعيدت إلى المدينة، ومن هنا إسم «وقعة الجمل» الذي أعطي لهذه المعركة الدامية الأولى التي جرت بين قوات المسلمين. لكن معاوية ظل خطراً في سورية.

«فعلي إذن، وقد حقق النصر في هذه المعركة الأولى الكبرى التي تقاتل فيها المسلمون فيما بينهم، لم يبقَ أمامه سوى معاوية. وهذه الإشارة البسيطة إلى الوقائع تكفي للدلالة على عنصر جديد هو إنتقال مركز الأمبراطورية وإنشطاره إلى (الكوفة ودمشق). . . وفي العام ٦٦٠ دار الصراع بين سورية، دمشق حيث كان معاوية حاكماً ومعلنا نفسه زعيماً للمطالبين بالإنتقام لدم عثمان والعراق، حيث كان علي يلتمس عوناً غير مؤكد لدى سكان الكوفة والبصرة وهما مدينتان جديدتان خلفتا عاصمة المملكة المتاخمة لإيران أي الحيرة واللتان ستحل محلهما مستقبلاً بغداد. فالصراع إذن كان ما يزال شأنه في الماضي بين دينين وعقليتين: المقاطعات البيزنطية والمتوسطية أي سورية ومصر في وجه المقاطعة الساسانية أي العراق»[١٥].

ج ـ معركة صفين (٦٥٧)

وكما فعل أنطونيو ثم أوكتافيوس عندما نَصّبا نفسيهما للإنتقام ليوليوس قيصر الذي إغتيل في روما وكوريثين له، هكذا فعل معاوية حاكم سورية

15 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 159-160.

زعيم الأمويين الذين كان ينتمي إليهم الخليفة عثمان المقتول في المدينة إذ أناط بنفسه واجب الثأر لدم عثمان.

وبدأ معاوية بالطلب إلى علي أن يسلمه قتلة عثمان. وبعد إنقضاء شهر من المفاوضات العقيمة قرر الفريقان اللجوء إلى السلاح حيث وقعت المعركة الحاسمة بينهما في صفين (٦٥٧) قرب الرقة على الضفة اليمنى من نهر الفرات. وبدأت الكفة تميل في هذه المعركة لصالح علي، عندما عمد الداهية عمرو بن العاص فاتح مصر وحاكمها السابق والذي إنضم إلى معاوية إلى نصح معاوية بأن يرسل قوات إضافية إلى أرض المعركة، تحمل المصاحف على رؤوس الرماح للإيحاء بطلبها الإحتكام إلى الله في هذا النزاع. وإنطلت هذه الحيلة على أهل العراق الذين فرضوا على علي القبول بالتحكيم. وإن الحَكَم الذي عينه معاوية عامل المتنافسين كمرشحين متنازعين على العرش. وبحيلة بارعة منه حمل مُحكم علي على مماشاته في إعلان خلع الإثنين معاً. فإستبد الغضب بعلي ورفض الرضوخ إلى هذا التحكيم مرتكباً بذلك خطأ. وكرد على موقفه هذا قامت قوات معاوية بالمناداة برئيسها خليفة.

د ـ الإنشقاقات الدينية الكبرى (٦٥٨)، ظهور مذهبَي الخوارج والشيعة

إن الذين كانوا من انصار البت الحازم من بين جماعة علي، وقد أغضبهم ما رأوه تردداً من زعيمهم وتخاذلاً ورعونة، آثروا التخلي عنه. وهؤلاء الذين إنشقوا أو عرفوا بالخوارج في التاريخ إختاروا من بينهم خليفة جديداً. وأما الذين ظلوا على ولائهم لعلي فعرفوا بالشيعة: أي حزب أو طائفة علي. فما كان من علي، وقد وقع بين نارين إلا أن مشى ضد الخوارج وألحق بهم هزيمة رهيبة (٦٥٨) وتفرق من بقي منهم في العراق وفارس حيث نشروا عقائدهم بسرعة قبل ان ينتقلوا الى الشمال الأفريقي.

هـ ـ إغتيال علي (٦٦١)، نهاية خلفاء المدينة

في حين كان علي منشغلاً بتمرد الخوارج فإن معاوية الذي كان يلاحق أنصار خصمه هزم عند أبواب مصر حاكم تلك المقاطعة المعين حديثاً من جانب علي وإستبدله «بعمرو بن العاص» (٦٥٨) وضمن بواسطة مهادنة عقدها مع كونستانس أمبراطور بيزنطية، لقاء دفع جزية سنوية له، بألا تقدم بيزنطية على مهاجمة أراضيه. وفي العام ٦٦٠ نُودي بمعاوية خليفة على المسلمين

في القدس. وفي العام ٦٦١ إغتيل علي في مسجد الكوفة في العراق. وبموت علي رابع خليفة للنبيﷺ انتهت سلسلة الخلفاء الراشدين وانتهت معها أمبراطورية المدينة العربية ـ الإسلامية.

و ـ معاوية الخليفة الوحيد (٦٦١)، بدء عهد خلفاء دمشق

بعد موت علي أصبح أموي دمشق سيد الامبراطورية الوحيد. ويمثل إرتقاؤه الخلافة نصراً تحققه الأرستوقراطية القديمة في مكة والتي حاربت طويلاً الرسولﷺ، على صحابة النبي. كما أنه يمثل بدء السيادة السياسية من جانب المقاطعات على المنطقة الإسلامية الأم. وستصبح دمشق العاصمة السياسية للأمبراطورية الإسلامية التي ستتطور بعد ذلك بإتجاه ملكية الأباطرة البيزنطيين والساسانيين الشرقية. وأما مكة والمدينة فستظلان العاصمتين الدينيتين بالنسبة الى الإسلام ومكانين للحج.

«وإذا ما ألقينا نظرة إلى الوراء وتأملنا في تطور الخلافة تحت حكم ممثليها الأربعة الأول... لرأينا في عهد أبي بكر استقرار جزيرة العرب والإعداد للفتوحات... وفي عهد عمر الفتح الظافر. وفي أيام عثمان توطيد تلك الفتوحات وانتشار الترف وضعف سلطة الخليفة. وفي أيام علي تضاعف وهن السلطة والحرب الأهلية التي ولدت الانشقاقات الكبرى وتوقف الفتح الخارجي، وربما إقتداءً بالملكيتين البيزنطية والفارسية، ظهور فكرة الملكية السلالية في الإسلام»[16].

16 Massé, *op. cit.*, p. 45.

III. الامبراطورية الشرقية التي شيدها خلفاء المدينة:
التنظيم الاداري والاجتماعي

وكما كانت روما وإيطاليا المركز السياسي في العالم الروماني الواسع في أيام الامبراطورية القديمة هكذا كانت المدينة ومكة والحجاز مركز العالم العربي ـ الاسلامي الجديد أيام الخلفاء الأربعة الأولين (٦٣٢ ـ ٦٦١). فخلال هذه الفترة الأولى من تاريخ الإسلام، كان الشرق المتوسطي يشكل مجموعة من المقاطعات المتواضعة المرتبطة بعاصمة سياسية ودينية تقع في الحجاز.

١ ـ تنظيم الأمبراطورية

أ ـ سلطات الخليفة

إن الانتشار السريع والواسع الذي حققته فتوحات العرب وقوتهم السياسية طرح على دولة المدينة التي ما تزال على الطراز القديم مشاكل كبيرة وجديدة. فخليفة المدينة، وقد أصبح رئيساً أعلى لامبراطورية واسعة، بات عليه تغيير دوره الأولي كسيد أو إمام لدولة تيوقراطية وأبوية وإقليمية. فالمهمة التي هي فوق طاقة البشر والتي أنيطت بعمر مؤسس الامبراطورية ومنظمها والمؤامرات والتحاسد التي كانت تمزق المجتمع الإسلامي الناشىء منعت الخليفة من أن يفكر في إعادة تنظيم الدولة الاسلامية الفتية.

لقد رأينا السلطات البالغة الاتساع التي كان يتمتع بها الخلفاء الأولون بصفتهم خلفاء النبيﷺ. ومع اتساع مدى الفتوحات الخارجية أصبحت تلك الصلاحيات التي كان الخليفة عاجزاً عن ممارستها وحده يتولاها أشخاص آخرون سواء في العاصمة نفسها أو في المقاطعات.

ب ـ مندوبو الخليفة وموظفوه

ففي مجال ممارسة السلطة المركزية كان يعاون الخليفة وزير أول يستأثر غالباً بالسلطة العليا كلها وبعض أمناء سر الدولة أو الكتّاب الذين يختارون غالباً من التابعين أو الذين إعتنقوا الإسلام حديثاً، وكان هؤلاء ذوي سطوة. وكانت إدارة الصلاة تناط بإمام وقيادة الجيش بأمير. وأما السلطة القضائية فيمارسها قضاة يعينهم الخليفة.

إعتمد العرب في البلدان المفتوحة كمصر وسورية وبلاد ما بين النهرين وفارس النظام الإداري الذي كان يتبعه أسلافهم البيزنطيون والساسانيون. وبقي الموظفون القدامى في مراكزهم حتى أولئك الذين ظلوا على دينهم السابق. فلقد أضيفت سلطة الخليفة الممثلة بمندوبين أو عمال ببساطة الى التنظيم الاجتماعي لدى مختلف المجموعات الخاضعة لهم.

وأوكل حكم المقاطعات الى مندوب هو الأمير الذي يمارس السلطة العسكرية والمدنية. وقد كان يشغل ذلك المنصب عادة القادة الاقليميون لقوات الاحتلال. «وحيث أن الجيش والمجموعة الدينية كان يكمل بعضهما بعضاً فقد كان هؤلاء القادة الأئمة والخطباء بحيث يشغلون تلك المهمة أيضاً. كما كان عليهم بادىء بدء تأمين مجرى العدالة. . . وحدها مصلحة الضرائب منذ البداية كان يشغلها موظف مسؤول مباشرة أمام الخليفة»[17]. وهذا العميل كان يعين الى جانب الحاكم لمنعه من أن يصبح بالغ القوة.

ج ـ العرب في البلدان المفتوحة

إن الغزاة العرب، وعلى غرار أسلافهم اليونانيين ـ الرومان والفرس، شكلوا في الشرق المحتل طبقة من الأسياد يختار من بينها أصحاب المناصب العليا في المقاطعات. وكان هؤلاء العرب يقيمون في المدن أو بالأفضلية لهم في المستوطنات الحديثة كالفسطاط (القاهرة القديمة) في مصر، أو الكوفة والبصرة في العراق وكانوا منظمين عسكرياً ويحملون اسم المهاجرين.

«لم يعرف العرب ان يكتسبوا حب المدن ولم تكن حياتهم السابقة قد أعدتهم لها. فخارج إطار المدن المقدسة كمكة والمدينة والقدس لم يكن هناك مدن اسلامية اطلاقاً. فقد كان يغيظهم سكن المدن التي كان يقيم فيها الكفار

17 Brockelmann, *op. cit.*, p. 60.

سابقاً: ونعيد إلى الذاكرة كره الأمويين لسكنى مدينة دمشق. لقد أسست الجيوش الاسلامية معسكرات دائمة حيث الوظائف الطبيعية للحياة المدينية تنشأ تلقائياً وحيث يتنظم الإسلام كدين أناس حضر يلتفون حول مسجد. وقد كانت الكوفة والبصرة والفسطاط معسكرات غدت فيما بعد، وكأنه رغماً عنها، مدناً كبيرة تمسك البدو بها شيئاً فشيئاً[١٨].

إن الفاتحين العرب، وهم قاريون أصلاً، إختاروا منذ البدء كعواصم للمقاطعات مراكز تقع عند ابواب الصحراء التي هي بيئتهم الطبيعية وطريق المواصلات الطبيعية مع وسط جزيرة العرب والحجاز واليمن وهي أساساً المراكز الأصلية التي انطلقوا منها في توسعهم. ويذكر ان تعليمات صادرة عن الخليفة عمر يوصي فيها ضباطه في مصر «لئلا يجعلوا المياه تقف حاجزاً بينه وبينهم».

وفي سورية حلت دمشق المدينة ـ الواحة محل أنطاكيا التي كان يفضلها اليونان لقربها من البحر الذي يجعلهم على صلة باليونان. وتلك الأسباب نفسها دفعت العرب الى استبدال مدينة الاسكندرية البحرية، عاصمة مصر أيام البطالسة ومصر اليونانية ـ الرومانية، بمعسكر الفسطاط العربي وهو قلعة بيزنطية سابقة (باليونانية فوساطون) على الضفة الشرقية من نهر النيل وعند أبواب الصحراء الشرقية والتي ستصبح بعدها مدينة القاهرة القديمة. وأخيراً وفي العراق فقد تخلى العرب عن كتيزيفون (المدائن) ـ سلوقيا التي كانت سابقاً مقر اليونان ومن ثم الفرس ليستبدلوها بالحيرة أولاً ثم بالكوفة ولاحقاً ببغداد.

إن قمح مصر الذي كان يشحن أيام الرومان واليونان الى روما وبيزنطية سيأخذ طريقه بعد ذلك وفي ايام الحكم العربي باتجاه المدينة. ومن أجل تسهيل عملية نقل القمح فإن عمرو بن العاص عمد الى ترميم القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر. وبعد ستة أشهر من العمل تم انجاز تلك القناة وأصبح بالامكان نقل الحبوب الى الحجاز.

د ـ أوضاع السكان الأصليين غير المسلمين.

إن الوضع القانوني للسكان الأصليين غير المسلمين لن يحدد بطريقة نهائية قبل القرن الثالث للهجرة. بيد أن الحديث الشريف يعزو الى الخليفة

18 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 159.

عمر ثاني خلفاء النبيﷺ إقامة المبادىء الاساسية التي تنظم علاقات السكان الأصليين من غير المسلمين.

ففي داخل شبه الجزيرة العربية، حيث يجب أن يكون جميع السكان من المسلمين، فإن اليهود العرب في خيبر الذين تساهل معهم الرسولﷺ تم نقلهم الى سورية بأمر من عمر. وهذا ما حل أيضاً بالطوائف المسيحية التي كانت موجودة في جزيرة العرب ممن رفض أعضاؤها إعتناق الإسلام. وأما خارج الجزيرة العربية فإن غير المسلمين من رعايا الخليفة كأهل الكتاب (مسيحيين ويهود) وحتى الوثنيين كانوا يعاملون بتسامح. فيتم الحفاظ على حياتهم وأموالهم شرط أن يدفعوا الجزية المزدوجة عن الأشخاص والأملاك.

«فأمام الطبقة العسكرية العربية كان غير العرب يلعبون دور الرعايا وهي جمع كلمة رعية (قطيع، أناس خاضعون)... وهي تعبير مجازي كان شائعاً لدى الأشوريين. ففي حين أن المسلمين كانوا معفيين من دفع الضرائب باستثناء ضريبة الفقراء فإن الرعايا كان عليهم دفع الضريبة ودفع بدل الخدمات التي تقدم الى هؤلاء الفقراء. لكن الحكم الذي كان لا يتدخل إلا نادراً في شؤون القبائل العربية الداخلية كان يعير أمور الرعايا الداخلية اهتماماً لا بل أقل. وأما في البلدان التي كانت سابقاً مسيحية فكان الأساقفة هم الذين يُعنون بإدارة الشؤون المدنية. وفي فارس احتفظت النبالة الريفية الصغيرة بموقعها الحاكم»[19].

إن السكان الأصليين من غير المسلمين كانوا يدفعون الى سادتهم الجدد العرب ضريبة الرؤوس أي الجزية والضريبة العقارية أي الخراج واللتين كانتا تحددان في شروط استسلامهم. وهذه الضريبة المزدوجة التي كان مبلغها أقل مما كان يستوفيه اليونانيون ـ الرومان كانت نوعاً من الضريبة للحماية التي كانت الدولة تؤمنها لهم مقابل السماح لهم بممارسة حريتهم الدينية. وفي مقابل دفع هذه العائدات كان السكان الأصليون من غير المسلمين، والذين تطلق عليهم تسمية عامة هي الذميون أو المحميون، يحتفظون بتنظيمهم الاجتماعي السابق مع دينهم وكوادرهم الادارية وأموالهم.

«فقد كان هناك إجمالاً، مجتمعان مؤتلفان تحت السيادة الوحيدة للخليفة: مجتمع العرب الفاتحين ومجتمع السكان الأصليين الخاضعين لهم.

19 Brockelmann, *op. cit.*, p. 61.

وقد احتفظ السكان الأصليون بعاداتهم وقضاتهم. وقد إعتادوا كلهم الى حد بعيد، سواء في الامبراطورية الرومانية أو المملكة الايرانية، على السهر بأنفسهم وبواسطة اتحادات خاصة على جميع الأعمال التي تحافظ على حركة بلادهم الاقتصادية بحيث كانوا لا يأبهون للاهمال المطلق الذي أبدته الدولة الاسلامية تجاه مصالحهم العامة. . . ولا بد أن نذكر في سياق الموضوع هذا التقصير من جانب الدولة الاسلامية. لكن الخلافة لم تكن ملامة على هذا. فقد كان للامبراطورية الرومانية العديد من الثغرات المماثلة»[20].

٢ ـ تساهل الفاتحين العرب وسماحهم

إن الفاتحين العرب، ونظراً الى قلتهم العددية والذين لم يكونوا ينتظرون قط نصراً بمثل تلك الشمولية والسرعة، كان وارداً جداً أن يطردوا بعد ذلك الى صحرائهم الأصلية في الجزيرة العربية لو لم تسهم عوامل قوية في استمالة تعاطف السكان الخاضعين لهم وتأمين الاستقرار الدائم لهم في البلدان التي احتلوها. وفضلاً عن العوامل الاقتصادية التي أمنت للامبراطورية العربية ـ الاسلامية ازدهاراً مادياً متألقاً فمن المهم التذكير دائماً بالتسامح الذي أبداه العرب وبسياستهم الانسانية والحكيمة وبموقفهم المفعم بالتساهل والحلم والتفهم حيال الشعوب الخاضعة وتطلعات هذه الشعوب القومية وحاجاتها الاجتماعية.

«فمن الثابت تماماً اليوم ان العرب لم يضطهدوا أحداً لاسباب دينية. . . فنحن لا نجد في كل تاريخ مصر المسلمة بإستثناء أيام حكم الخليفة الحاكم بأمره (٩٩٦ ـ ١٠٢١) أي تدبير يمكن تشبيهه مثلاً باضطهاد المسيحيين الذي لجأ اليه ديوكليسيان»[21]. لا بل ان الفاتحين العرب الأول حموا الدين المسيحي واحترموا الكهنة وتبرعوا بالهبات الى الكنائس والأديرة وسمحوا ببناء كنائس جديدة. ولم يتغير هذا الوضع الا في وقت لاحق في أيام الخليفة العباسي المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١) كما سنرى حين أصدر هذا الخليفة أوامر مفصلة وقاسية حول مسألة الكنائس وكذلك حول العلامات التي تميز الأشخاص الخاضعين له. وقد كان المتوكل هذا أميراً شرساً ويشعر انه مهدد في حياته ولذا فقد هاجم بشدة أكبر أيضاً أتباع الفرق الاسلامية غير السنّية.

وأما بالنسبة الى التدابير الزجرية والمذلة التي طبقها المسلمون لاحقاً على

20 Gaudefroy-Demombynes, op. cit., p. 153, 154.
21 Gaston Wiet, *L'Egypte arabe*, p. 40.

تـابعيهم المسيحيين واليهـود فهي لا تشكل سـابقة في ذلـك العصر وأمـا أسبابهـا فسياسية اكثر منها دينية. وتروي السير العربية لمرحلة مـا قبل الاسـلام «أن أحد ملوك الفرس القدامى أصدر أوامر تحظر على العرب قص شعرهم، وبأن يلبسوا ألبسة من لون محـدد وأن يسكنوا في خيـام منسوجـة من شعر الجيـاد كما ألـزمهم بركوب الجياد من غير سرج. ومن جهة اخـرى فلعل الاسـلام أخذ من مجمـوعة القوانين البيزنطية منع بناء كنائس جديدة»[٢٢]. وكانت تلك القوانين البيزنطية بالطبع تستهدف بناء الكنائس المنشقة.

لـذا لا يمكننا الحكم عـلى تلك المعـاملة التمييـزيـة إنـطلاقـاً من أفكـارنـا وعقليتنـا الحديثـة. ففي مصر كـان الأفراد الـذين يتم إحصاؤهم في قـرى ليسوا من سكانها الأصليين يدمغون على أيديهم وجبـاههم. «وهناك نص واضـح يعود الى القرن الرابع عشر يذهب الى حد التأكيد بأن تلك العلامـات الموشـومة عـلى الجسـم البشـري لم تكن تنـطوي عـلى أيـة إهـانـة ولم تكن تشق عليهم بـوجـه خاص. . . وبالنتيجة فإن الأساليب المستخدمـة، مهما كـانت مهينة، إنمـا ينبغي النظر اليها في إطار عصرها وبيئتها»[٢٣].

إن الشعـوب التي سيـطر عليهـا العـرب، وكـانت مستعبـدة منـذ عصور عديدة، كانت في الواقع سعيـدة بتجاوز كـارثة الغـزو الجديـد والتخلص منه بذلـك الثمن البخس. فالجـزية العـربية تبـدو بخسة أمـام ما كـان يتقاضـاه عملاء البيزنطيين والساسانيين. «وإن تعب البعض من النزاعات الدينية ولامبالاة البعض الآخر جعلاهما معاً يتقبلان إزدراء المنتصرين لرعاياهم الغرباء عن الطائفة المختارة من دون عجب»[٢٤].

٣ ـ التعريب والأسلمة في البلدان المحتلة أيام خلفاء المدينة

يميـل البعض كثيـراً الى الخلط بـين امتـداد سيـطرة الاسـلام السيـاسيـة وإنتشار الدين الاسلامي واللغة العربية،وبـالتالي تـأويل إعتنـاق الشعوب المحتلة الاسلام على أنه رضوخ للقوة الفظة. إن وقائع التاريخ تعلمنا على العكس من ذلك بأنـه اذا كانت امبـراطوريـة الخلفاء الاولـين، وكسائـر الامبراطـوريات الكبرى، قد بنيت بقـوة الحراب وانتشـرت بفضل الفتـوحات العسكـرية الا أن

22 G. Wiet, *L'Egypte arabe*, p. 23.
23 Wiet, *op. cit.*, p. 46-47.
24 Gaudefroy-Demombynes, *op. cit.*, p. 153.

الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى انتشار الدين الإسلامي واللغة العربية اللذين لم يتقدما أبداً على الوتيرة نفسها. فتعريب العالم الشرقي وأسلمته لم يتما، كما قلنا، الا ببطء وتدريجاً خلال العصور.

فخلال كل فترة ولاية خلفاء المدينة (٦٣٢ ـ ٦٦١) فإن الهيئات الادارية في مقاطعتي سورية ومصر البيزنطيتين سابقاً ثابرت على استخدام اللغة اليونانية كما أن السكان الأصليين من غير المسلمين كانوا يشكلون الأغلبية خارج الجزيرة العربية. وظلت العملات البيزنطية أيضاً قيد التداول. ولم يتم فرض اللغة العربية كلغة رسمية في الادارة على جميع اراضي الامبراطورية الا في أيام خلفاء دمشق الأمويين بدءاً من العام ٧٠٠. وحتى بعد ذلك التاريخ، كما نعلم، ظلت اللغة الآرامية في سورية والعراق واللغة القبطية في مصر ولفترة طويلة متداولتين في صفوف السكان الأصليين.

وما من ريب بأن الانتصارات العربية المدهشة كان لها أثر معنوي كبير على السكان الشرقيين الذين ينبذون الحرب ويتأثرون كثيراً بهيبة القوة. لكن هؤلاء الشرقيين الذين أحسنوا استقبال المحتلين الجدد الذين انقذوهم من جور البيزنطيين والفرس لا بل هللوا لهم احياناً إنما حظوا بحريتهم التامة في الاحتفاظ بأديانهم الخاصة. فالفاتحون العرب لم يقوموا بتنظيم حياة رعاياهم من غير المسلمين بطريقة قانونية وحسب بل حتى انهم شجعوهم على عدم الدخول في الاسلام عندما أعطوا المهتدين الجدد رتبة أدنى في المجتمع الاسلامي.

لذا فخلال القرن الأول للهجرة فإن شعوب سورية ومصر وبلاد ما بين النهرين ظلت في معظمها أمينة على معتقدات جدودها الدينية. واحتفظت لفترة طويلة بمحاكمها ولغاتها ومؤسساتها البلدية والاقليمية عن طريق دفع الضريبة. وكانت تلك الشعوب تتحمل مسؤولية الحفاظ على النظام وجباية الضرائب وبالتالي كانت تعفي المحتلين من متاعب الادارة التي لم يكن الفاتحون قد تهيأوا لتعقيداتها.

وندرك من هذا أنه وتحت حكم مماثل يذكرنا بتسامح الفرس الاخمينيديين وتساهلهم كان العالم الشرقي عموماً مخلصاً لحكامه الجدد. وبالفعل فإنه وخلال تلك الحقبة الأولى من التاريخ الإسلامي كانت

امبراطورية الخلفاء، حيث العناصر غير الاسلامية وغير العربية ما تزال تشكل أغلبية السكان، في أوج قوتها وفي عز فتوحاتها الكبرى.

وفي المقابل، وقد يبدو هذا الأمر مدهشاً، فبدءاً من الوقت الذي اعتنق فيه العالم الشرقي في غالبيته الاسلام واعتمد اللغة العربية اخذت المجموعات الجغرافية المتفرقة في امبراطورية الخلفاء تشهد إنبعاث نزعاتها الاقليمية القديمة مما آل الى هدم الوحدة السياسية في البناء الامبراطوري الذي حققته الخلافة. وهكذا يتضح لنا مرة اخرى، وكما لاحظنا في مرات عديدة خلال الفترات السابقة، ان الدين واللغة لا يخدمان كعوامل وحدة سياسية نظامية ثابتة ومتينة.